بلاد عيلام وعلاقتها بالعراق القديم

الدكتور عامر سليمان
استاذ

ان الحديث عن بلاد عيلام وعن السلالات التي تعاقبت على الحكم فيها هو جزء من ونموذج للحديث عن تاريخ ايران بصورة عامة وعلاقته بتاريخ العراق القديم . وقد امدتنا النصوص المسمارية الكثيرة المكتشفة في بلاد عيلام وفي مدن العراق القديمة بمعلومات وافية ومفصلة عن سير وتطور الاحداث التاريخية في المنطقة وعن اسبابها ونتائجها. وتشير هذه النصوص إلى المحاولات المتكررة التي قام بها حكام وملوك عيلام والدول والممالك الفارسية التي اعقبتها في السيطرة على ايران للسيطرة على العراق ولاسيما على قسمه الجنوبي والوسطي الذي كان يعرف حينئذ ببلاد سومر وأكد ومن ثم عرف ببلاد بابل .

ففي بلاد بابل نشأت ونمت وازدهرت احدى اعرق الحضارات الاصيلة المعروفة وذلك منذ الالف الخامس قبل الميلاد واستمرت تلك الحضارة المزدهرة بعطائها السخي ترفد الحضارات الانسانية ولاسيما حضارات البلدان والاقاليم المجاورة كحضارة بلاد عيلام. ومع ذلك ، كانت المراكز الحضارية التي ازدهرت في بلاد بابل بما لديها من ثروات طبيعية ومقومات حضارية ونشاط انساني متميز نحو التطور والتقدم قياسا مع الاقاليم والبلدان المجاورة ، مطمح انظار الدول والممالك التي قامت في تلك الاقاليم بما فيها المنطقة الجبلية .

وان استعراض سريع لتطور الاحداث التاريخية والسياسية والعسكرية منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد فصاعدا يوضح بكل جلاء ان العراق ، وعلى الاخص قسمه الجنوبي والوسطي ، قد تعرض وعلى مر العصور إلى غزو واعتداءات ومحاولات التخريب التي قامت بها الدول والممالك المختلفة التي تعاقبت على الحكم في الاقاليم الواقعة إلى الشرق منه متى كانت الفرصة مواتية ومتى شعرت تلك الدول والممالك بأن بلاد بابل او آشور منشغلة عنها بالدفاع عن حدودها واراضيها في الجبهات الاخرى ولاسيما الجبهة الغربية ، او ان الظروف السياسية والعسكرية في العراق تمكنها من التدخل في شؤونه الداخلية وتحريض العناصر المناوئة فيه للسلطة المركزية من خلال تقديم الدعم

المادي والعسكري لها لتمكينها من التمرد ضد السلطة وبالتالي السيطرة عليها وعلى الحكم في العراق.

ولقد تصدى العراق وبكل حزم لمثل هذه المحاولات المتكررة وكال الصاع صاعين مرات كثيرة وقضى على السلالة الحاكمة في عيلام نهائيا ،ومع ذلك وقع العراق في فترات ضعفه واضطراب الاوضاع السياسية والعسكرية فيه ضحية الاعتداءات الاجنبية وبشكل خاص اعتداءات الاقوام الايرانية الفارسية .

وكانت اولى محاولات الغزو والاعتداء على العراق في عهد السلالات الحاكمة في بلاد عيلام منذ الالف الثالث قبل الميلاد والتي ستتطرق اليها في هذا البحث الموجز . وتتابع من بعد ذلك على غزو بلاد بابل كل من قبائل اللولوبو والاقوام الكوتية والاقوام الكاشية وهي من القبائل التي جاءت من الشرق واتخذت من المنطقة الجبلية المحاذية للعراق مستقرا لها ،وكل منها تمكن من بلاد بابل او من جزء من حدودها لفترة معينة ثم مالبثوا ان اخرجوا منها وبالقوة ثم اعقب ذلك غزو الاقوام الفارسية الاخمينية والفرثية للعراق واخيراً كان دور الساسانيين الذين تم القضاء عليهم والتخلص من نفوذهم في معركة القادسية ابان التحرير العربي الاسلامي لارض العراق . ان هذه الحقائق التاريخية تشير بكل وضوح إلى ان العدوان الفارسي الجديد على ارض ومياه العراق الذي هو عدوان موجه ضد الامة العربية جمعاء ليس وليد سنة او بضع سنوات بل انه حلقة اخرى من حلقات الاعتداءات الفارسية على العراق الذي تمتد جذوره إلى ابعد العصور التاريخية المعروفة لدينا والتي سبقت التحرير العربي الاسلامي للمنطقة بمئات عديدة من السنين .

كما ان تصدي العراق الحازم والقوي لمثل هذه الاعتداءات ورده لها بالقوة والشجاعة التي اعترف بها حتى الاعداء مثل آخر من امثلة البطولة والشجاعة والدفاع عن كرامة وعروبة العراق التي تميز بها موقف العراق عبر تاريخه الطويل .

ولدراسة تاريخ بلاد عيلام (١) وعلاقته بتاريخ العراق القديم لابد للباحث من الاعتماد بالدرجة الاولى على النصوص المسمارية المدونة باللغة السومرية والاكدية والمكتشفة في مدينة سوسا عاصمة مملكة عيلام وغيرها من المدن العيلامية والعراقية الاخرى . اما النصوص المدونة باللغة العيلامية فعددها محدود وفائدتها قليلة نظراً لعدم اكتمال حل رموز الكتابة المسمارية العيلامية بعد.

لمحة عن جغرافية بلاد عيلام والتسميات التي اطلقت عليها :

تتمثل بلاد عيلام القديمة باقليم عربستان الحالي تقريباً فهي تقع في الجهة الجنوبية الغربية من ايران اى انها تحاذى بلاد سومر واكد من جهة الشرق. وكانت بلاد عيلام تضم في معظم فترات تاريخها القديم السهل الرسوبي الفسيح المعروف بسهل عربستان وبعض اجزاء الهضبة والمرتفعات الجبلية الواقعة إلى الشرق والشمال من السهل ويؤلف السهل من حيث التكوين الجيولوجي وطبيعة الارض والتضاريس امتداداً طبيعيا لسهل العراق الرسوبي ولايفصله عنه أى حاجز طبيعي يمنع اتصال سكان بلاد عيلام بسكان بلاد سومر وأكد ويخترق السهل نهرا الكارون والكلخة ، اللذان ينبعان من المرتفعات الشرقية،وروافدهما ، كما يتخلل السهل بعض الاهوار والمستنقعات الممتدة غربا حتى محاذاة نهر دجلة وبذلك يصبح الاتصال بين الاقليمين المتجاورين، عيلام وبابل ، ممكنا وسهلا ويمكن تحقيقه باستخدام ابسط وسائل النقل النهرية او البرية (٢).

وقد اطلق السومريون اسم نم NIM الذي يعني في اللغة السومرية «النجد المرتفع» على الاقليم الواقع إلى الشرق من بلادهم ، ويشير معنى الاسم إلى ان

١) حول تاريخ بلاد عيلام والسلالات التي تعاقبت على الحكم فيها انظر :
Cambridge Ancient History, part 2, vol. I,pp. 644-661 ;part2, vol. II, pp. 379-399 .

(٢) حول جغرافية بلاد عيلام انظر : طه باقر ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، بغداد ١٩٥٦ : الجزء الثاني ،صفحة ٣٧٥--٣٧٨

الاقليم كان يضم الهضبة والمرتفعات الجبلية في الشمال والشرق من السهل الرسوبي ، وهذا ماتؤيده الدراسات الحديثة عن تاريخ بلاد عيلام ، اما الاكديون فقد سموا الاقليم «ايلامتو» Elamtu (Ki) الذي ربما كان ترجمة لمعنى الاسم بالسومرية او تصحيف له (١) في حين اطلق العيلاميون انفسهم اسم خاتامتي Hatamti او خالتامتي Haltamti عــلى بلادهم (٢) . ويعني الاسم بالعيلامية «ارض الرب او الاله» . وفي النصوص الفارسية المتأخرة عرف اقليم عيلام باسم اوفاجا Uvaja او خوفاجا Huvaja ومن هذه الصيغة اشتقت كما يظن البعض كلمة خوز وخوزى (٣) . اما الاغريق فقد اطلقوا على المنطقة اسم «سوسيانا» اى بلاد السوس نسبة إلى العاصمة سوسا وسماه العرب الاحواز الذي حوره الفرس إلى الاهواز (٤) . كمــا استخدم الايرانيون انفسهم «عربستان» للاشارة إلى اقليم الاحواز ، والذي يعني «بلاد العرب» مؤكدين بذلك عن غير قصد ، بأن سكان الاقليم هم من العرب.

(١) انظر طه باقر، المصدر السابق، صفحة ٣٨١ وهامش ١.

(٢) انظر CAH, Part2, vol. I, p. 644

(٣) طه باقر، المصدر السابق، صفحة ٣٨١

(٤) جاء في كتب المؤرخين العرب بأن اسم الاحواز ، وهو جمع كلمة حوز ، من الفعل حاز بمعنى الحيازة والتملك، وكان العرب يستعملون هذا اللفظ دلالة على تمليك الارض دون سواها، ويشيرون إلى الارض التي اتخذها فرد وبين حدودها فاستحقها دون منازع، ويذكر انه لما غزا الاسكندر المقدوني فارس وجزأها إلى امارات انفرد العرب بالمنطقة واطلقوا عليها اسم الاحواز نسبة إلى ملكيات قبائلهم لاقسامها (انظر مصطفى عبد القادر النجار ، التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية، دار المعارف بمصر، ١٩٧١ صفحة ٣١ ملاحظة ٥ الذي يشير إلى ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ١ صفحة ٣٨٠) ويشير النجار إلى ان الاهواز جمع هوز واصله حوز فلما كثر استعمال الفرس لهذه الكلمة غيرتها حتى اذهبت اصلها جملة لانه ليس في كلام الفرس حاء مهملة واذا تكلموا بكلمة فيها حاء قلبوها هاء.

ويشير مصطفى النجار بعد ذلك إلى ان اسم الاقليم ايام الفرس كان خوزستان ومعناه بلاد القلاع والحصون حيث أن العرب بعد معركة القادسية بنوا فيها مواضع حربية كل موضع يسمى خوز بالفارسية (صفحة ٣٢ ملاحظة ١) .

العلاقات السياسية والعسكرية :

تحدثنا النصوص المسمارية المدونة باللغة السومرية أو الأكدية عن محاولات الملوك والحكام الذين تعاقبوا على حكم بلاد عيلام ومنذ فترة مبكرة جداً من تاريخها للسيطرة على بلاد سومر وأكد بالقوة وضمها إلى نفوذهم متى سنحت لهم الفرصة . ويأتي في مقدمة هذه النصوص من حيث تسلسل الأحداث التاريخية فيها مايعرف عادة بجداول أو إثبات الملوك السومريين ، وهي جداول دونها الكتبة العراقيون القدماء في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد وذكروا فيها أسماء السلالات التي تعاقبت على حكم بلاد سومر منذ أقدم الأزمنة العالقة في اذهانهم وحتى تاريخ تدوين الجداول وقد ذكرت أسماء الملوك والحكام وسني حكمهم وبعض الأحداث المهمة التي وقعت في حكمهم (١). وتعبر هذه الجداول عن انتقال السلطة السياسية والعسكرية من مدينة إلى أخرى بالقول أن المدينة الفلانية «ضربت بالسلاح» أي انها دحرت عسكرياً وانتقلت السلطة السياسية والعسكرية منها إلى المدينة الثانية . وتتحدث الجداول عن انتقال السلطة من بلاد سومر بالقوة أكثر من مرة وانتقلت إلى مدن أخرى في بلاد عيلام حيث تذكر بعد الحديث عن سلالة أور (الاولى) التي حكمت في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد مانصه :

---

(١) حول هذه الجداول وترجمتها انظر

The Jacobsen, The Sumerian King List, Chicago, 1939 (OIUC, AS, no. 11)

وحول ترجمتها إلى العربية انظر، طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة بغداد ، ١٩٧٣، الجزء الاول، صفحة ٢٨٨ — ٢٩٥.

ومن الجدير بالتنويه ان كتاب الجداول قد وضعوا حادثة الطوفان الشهيرة حداً فاصلا بين العهود القديمة والعهود الحديثة كما انهم غالوا كثيرا في تحديد سني حكم بعض الملوك لا سيما الاوائل منهم، واعتقدوا بأن السلالات الحاكمة كانت متعاقبة في حين ان البعض منها كان معاصرا للبعض الآخر. ومع هذه المآخذ على الجداول التي يمكن تفسيرها بانها نتيجة تقادم الاحداث المذكورة السحيق بالنسبة لكتاب الجداول وعدم توفر المعلومات الدقيقة عنها واكتسابها صفة الاسطورية والبطولة الا انها تظل من مصادر معرفتنا المهمة عن تاريخ العراق في عصور فجر السلالات.

«المجموع أربعة ملوك حكموا ١٧٧ عاماً ، دحرت اور ونقلت ملوكيتها إلى أوان ، وفي أوان حكم ثلاثة ملوك ٣٥٦ عاماً . دحرت أوان ونقلت ملوكيتها إلى كيش . وفي كيش حكـم ......

ويلي ذلك أسماء الملوك وعدد سني حكمهم ثم تذكر الجداول . بعد أسماء ملوك كيش :

«المجموع ثمانية ملوك حكموا ٣١٩٥ عاماً ، دحرت كيش ونقلت ملوكيتها إلى حمازي (أو خمازي) وحكم في حمازي هدانش . المجموع ملك واحد حكم ٣٦٠ عاماً . دحرت حمازي ونقلت ملوكيتها إلى اوروك ».

والثابت أن كلا من مدينة أوان ومدينة حمازي هما من المدن الواقعة في بلاد عيلام وإن ماجاء في جداول الملوك السومريين يتفق والمعلومات الآثارية المتوفرة لدينا من المصادر الأخرى حيث تفيد تلك المصادر أن بلاد سومر في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد كانت مفككة ومجزأة إلى عدد من دويلات المدن الصغيرة المتناحرة على السلطة فكانت السلطة تنتقل من مدينة إلى أخرى بسهولة ومتى قويت إحدى المدن على المدينة الأخرى كما تؤكد الجداول بأن نظرة كتاب الجداول إلى المدن العيلامية كانت كنظرتهم إلى المدن السومرية وان انتقال السلطة من مدينة أور إلى أوان هو انتقال السلطة إلى مدينة أخرى من المدن القائمة آنذاك حسب ولم يشر كتاب الجداول إلى أن السلطة انتقلت إلى بلاد أجنبية .

غير أن الأوضاع السياسية والعسكرية العامة في بلاد سومر وأكد تغيرت بقيام الدولة الأكدية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد (حكمت الدولة الأكدية في الفترة بين ٢٣٧٠ وحتى ٢٢٢٠ ق.م) فقد تمكن الأكديون ، وهم من الأقوام العربية القديمة التي جاءت أصلا من شبه الجزيرة العربية ، من توحيد دويلات المدن التي كانت منتشرة في العراق شمالا وجنوبا تحت قيادة مركزية واحدة ومالبثت أن أقامت لها دولة مترامية الأطراف شملت

أجزاء من آسيا الصغرى ووصلت إلى سواحل البحر المتوسط شمالا وغربا في حين امتدت حدودها حتى سواحل الخليج العربي جنوباً وضمت بلاد عيلام شرقاً فوقعت المدن العيلامية المختلفة تحت حكم الأكديين . ويذكر أن سرجون الأكدي عين له ممثلا شخصياً في مدينة سوسا عاصمة عيلام كما تذكر لنا إحدى مسلات سرجون المكتشفة في مدينة سوسا أخبار انتصاراته على عيلام ودخوله سوسا. في أواخر عهد ترام رسن ، حفيد سرجون ، دب الضعف والتفكك الى أوصال الدولة الأكدية فاستغلت عيلام الفرصة وانسلخت عن نفوذ الأكديين وقام أحد حكامها بالتمرد ضد الأكديين كما استغلت هذه الفرصة بعض الأقوام الجبلية القاطنة إلى الشرق من بلاد أكد والتي عرفت بالأقوام الكوتية فهجمت على المدن الأكدية وأنهت حكم السلالة الأكدية وتحكمت في المدن الأكدية وبعض المدن السومرية لفترة تقرب من مائة عام حتى كانت حرب التحرير التي قادها أوتو حيكال حاكم مدينة الوركاء والتي تم في نهايتها طرد الأقوام الكوتية من البلاد (١). وفي أعقاب طرد الكوتيين من بلاد أكد قامت سلالة أور الثالثة التي حلت محل الدولة الأكدية في المنطقة فخضع لها حكام عيلام كما خضعوا لسرجون من قبل واتبعوا سياسة موالية إلى حكام وملوك امبراطورية أور الثالثة . ومع ذلك كان حكام المدن العيلامية يتحينون الفرص للانقضاض على سلالة اور واعلنوا تمردهم أكثر من مرة حتى كانت محاولتهم الأخيرة في عهد أبي — سن آخر حكام أور الذي وقع ضحية هجوم القوات العيلامية (٢) .

وفتحت مدينة اور وقتل ملكها على يد القوات العيلامية واقام العيلاميون لهم سلالة حاكمة في مدينة لارسا ومدوها بالقوة لتمكينها من السيطرة على بقية أجزاء البلاد . وقد صادف في هذه الفترة تدفق الأقوام الأمورية من الغرب ،

(١) حول حرب التحرير هذه انظر : د. فاضل عبد الواحد، اقدم حرب للتحرير عرفها التاريخ، سومر ، ٣٠ (١٩٧٤)، صفحة، ٤٧ — ٥٧.

(٢) انظر

S.N. Kramer . The Sumerians , Chicago , 1963 , p.1 .

وهي فرع من الأقوام العربية القديمة النازحة من شبه الجزيرة العربية عن طريق نهر الفرات ، وانتشرت في مدن العراق المختلفة وأقامت لها سلالات محلية مستقلة كان منها سلالة أشنونا في منطقة ديالى وسلالة ايسن وسلالة بابل وسلالة آشور وغيرها . وقد حاولت سلالة لارسا التي كانت تسندها القوات العيلامية السيطرة على هذه السلالات وتمكنت فعلا من القضاء على سلالة ايسن المنافسة الرئيسية لها غير أن تعاظم شأن سلالة بابل الأمورية وتولي حمورابي الحكم فيها حال دون استمرار لارسا في تنفيذ خططها التوسعية فتمكن حمورابي أخيراً من القضاء عليها وضمها إلى نفوذه من بعد قضائه على السلالات المحلية الحاكمة في المدن الأخرى وامتد نفوذ حمورابي ليشمل المدن العيلامية أيضاً .

وبعد سقوط سلالة بابل الاولى ، سلالة حمورابي ، على أيدي الأقوام الكاشية الغازية ، استقلت عيلام عن نفوذ بلاد بابل وعادت تحاول القضاء على السلالة الكاشية نفسها . وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، أي بعد سقوط سلالة حمورابي بأربعة قرون تقريباً ، تمكنت القوات العيلامية من دخول بلاد بابل والقضاء على السلالة الكاشية ودمرت مدينة بابل ونهبت قصورها ومعابدها وسلبت كنوزها . وكان من جملة الاسلاب التي حملتها القوات العيلامية إلى مدينة سوسا مسلة حمورابي التي تحمل قوانينه ومسلة نرام — سن وتمثال الإله مردوخ الإله القومي لبلاد بابل . غير أن نبوخذ نصر الأول تمكن في بداية الألف الأول قبل الميلاد من غزو بلاد عيلام ودخول العاصمة سوسا واستعادة تمثال الإله مردوخ البابلي في حين ظلت مسلة حمورابي في الاسر حتى تم اكتشافها في سوسا عام ١٩٠١ من قبل البعثة الفرنسية العاملة هناك وهي تعيش الآن اسرها الثاني في متحف اللوفر في باريس .

لقد كانت محاولات حكام عيلام واعتداءات القوات العيلامية حتى مطلع الألف الأول قبل الميلاد موجهة إلى بلاد سومر واكد التي عرفت فيما بعد ببلاد بابل . ولم تكن بلاد آشور في شمال العراق من القوة المركزية بحيث

تتمكن من احباط تلك المحاولات وصد الاعتداءات كما أن بلاد بابل نفسها لم تكن خاضعة أو متحالفة مع بلاد آشور . ومنذ أواخر القرن العاشر قبل الميلاد ، أي منذ بداية العهد الآشوري الحديث وحتى نهاية كيان الآشوريين السياسي والعسكري في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، تتغير الأوضاع في بلاد آشور ويصل الآشوريون إلى قوة مجدهم السياسي والعسكري وازدهار حضارتهم وامتداد نفوذهم وغدت الامبراطورية الآشورية الحديثة تضم معظم بلدان الشرق الأدنى القديم من مصر غرباً وحتى بلاد عيلام شرقاً ومن سواحل البحر المتوسط وحتى سواحل الخليج العربي . ولم يعد بامكان حكام المدن العيلامية مواجهة قوة الدولة الآشورية المتعاظمة فكانوا يتبعون الأسلوب نفسه الذي اتبعوه من قبل في التدخل في شؤون بلاد بابل الداخلية وتحريض المدن البابلية ضد الحكم الآشوري واستمالة بعض المدن والقبائل للقيام بالتمرد ونبذ السيطرة الآشورية . واستفاد حكام عيلام من حقيقة اتصالهم الوثيق مع بلاد بابل وعدم وجود حواجز أو موانع تقف امام تدخلهم في بلاد بابل ومن تعرفهم على طبيعة بلاد بابل وطبيعة سكانها ونجحوا في استمالة بعض القبائل والمدن البابلية لاسيما تلك الواقعة في المنطقة الحدودية فقدموا لها المساعدات المادية والعسكرية ووفرت لها الملجأ في حالة الفشل . و تمدنا حوليات الملوك الآشوريين بتفاصيل محاولات حكام عيلام بهذا الاتجاه وتفاصيل الحملات العسكرية التي قادها الآشوريون للقضاء على محاولات التمرد في بلاد بابل وعلى حكام عيلام الذين كانوا وراء تلك التمردات حتى كانت الضربة القاضية التي وجهها الملك الآشوري آشور بانيبال على السلالة الحاكمة في عيلام وذلك عام ٦٣٩ ق.م وانهى بها كيان عيلام السياسي .

وكمثال على أسلوب تدخل حكام عيلام في شؤون بلاد بابل وتحريضهم بعض القبائل البابلية ضد الحكم الآشوري هو تمرد قبيلة بيت — ياكيني الكلدانية المتكرر بالتحالف مع عيلام ومحاولاتها السيطرة على الحكم في بلاد بابل والانفصال عن الدولة الآشورية بتحريض ومساندة السلالة الحاكمة في

عيلام . ويحدثنا سنحاريب في حولياته عن هذه المحاولات وكيف تمكن من القضاء عليها وافشال خططها. فقبل تولي سنحاريب الحكم عام ٧٠٥ ق.م كان زعيم قبيلة بيت – ياكيني الكلداني قد هرب مع أفراد قبيلته أمام القوات الآشورية إلى بلاد عيلام واستقر في المنطقة الواقعة على الساحل الشرقي من الخليج العربي . وفي عام ٧٠٤ ق.م. قرر سنحاريب تجهيز حملة عسكرية قوية للقضاء على زعيم القبيلة المتمرد وعلى ملك عيلام الذي وفر له الملجأ وأمده بالمعونات المادية والعسكرية فاختار سنحاريب أسلوباً جديداً لقيادة وتقدم حملته هذه يفيد من وسائط النقل النهرية والبحرية ويعتمد خطة للهجوم من البحر عن طريق ساحل الخليج العربي ، وهو أسلوب لم تألفه أو تتوقعه عيلام ، واستعان سنحاريب بصناع السفن والملاحين السوريين الذين اشتهروا بذلك وهاجم عيلام بقواته البرية والبحرية إلى أن تمكن من القضاء على زعيم قبيلة بيت – ياكيني وفتح المدن الساحلية وأسر اعداداً كبيرة من أفراد القبيلة المتمردة ومن القوات العيلامية الحليفة عاد بها إلى بلاد آشور . وفيما يلي ترجمة حرفية لأجزاء منتخبة من حملة سنحاريب (السادسة) على بلاد عيلام :

« في حملتي السادسة ضد ناكيتو Nagitu (و) وناكيتو – دبينا Nagitu-di'bina (وهي) مدن تعود إلى ملك عيلام، والتي تقع على الجانب الآخر من البحر المر (أي الخليج العربي) حيث هرب أفراد قبيلة بيت – ياكيني أمام أسلحة الإله آشور القوية ، وتركوا مدنهم وعبروا البحر المر واستقروا هناك بسلام . الإله آشور اعطاني مزيداً من القوة ضدهم فأصدرت أوامري بالتوجه إلى ناكيتو . فجلبت الحيثيين (السوريين) الذين قهرتهم بالسلاح إلى نينوى ، فبنوا سفناً ضخمة (على غرار) سفن بلادهم . وامرت ملاحين من صور وصيدا وقبرص الذين كنت قد اسرتهم بأن (يبحروا بالسفن) على نهر دجلة وينزلوا اليابسة عند اوبس . ومن اوبس (حيث) سحبوا السفن إلى اليابسة وسحبوها على الأعمدة إلى قتال اراختو (؟) ووضعوها في قتال اراختو

وأنزلتها انتتال بيت–داكوري الكلدانية [.....] ووضعت حاملي أسلحتي الرعبة الذين لايعرفون الخوف ، وجنود المشاة المختارين ومقاتلي الشجعان الذين لايعرفون الراحة (؟) في السفن ، وجهزتهم بالمؤن للرحلة ... وأبحر مقاتلي في الفرات بينما بقيت انا على اليابسة ، وجعلتهم يتقدمون إلى باب — ساليمتي Bab - Salimeti ....

واقمت خيمتي في ذلك المكان .. وهاجت الامواج القوية من البحر ودخلت خيمتي وحاصرتني تماما وانا في خيمتي وجعلت رجالي يخيمون في سفنهم العظيمة كأنهم في اقفاص لمدة خمسة ايام بلياليها ووصلت سفن مقاتلي إلى المستنقعات عند فم النهر حيث يصب الفرات ماءه في البحر المخيف . وقابلتهم عند ساحل البحر المر . وقدمت إلى الاله ايا ، ملك الاعماق ، القرابين ..... وجعلت سفني تصل إلى ناكيتو بسرعة . وعلى ساحل البحر المخيف الذي لم يكن ملائما للنزول او لركوب الخيل او سير الجند ، وكان حقا صعبا جداً فرأى الكلدانيون الذين يعيشون في ناكيتو ، وناكيتو دبينا وسكان خلمو وبيلاتو وخوبابانا سفن مقاتلي وتجمعوا إلى بعضهم فوقف ضدهم رماة السهام والعربات والخيل والبغال ، اعداد لاحصر لها . وكانت الخطة ان نبدأ المعركة عند نهر اولاى Ulai الذي كان شاطئه ملائما . وبعد احتلال المكان الذي سينزل فيه جيشي ، بدأت المعركة ، وتمكن جندى من احتلال جانبي الحوض ونزل الجند من السفن إلى الساحل كالجراد وتمكنوا من دحر (الاعداء) . وفتحوا مدينة ناكيتو وناكيتو— ديبانا وخلمو وبلاتو وخوبابانا ، وهي مدن تعود إلى ملك عيلام . واسروا حامياتهم (العسكرية) والكلدانيين وجميع آلهة بيت — باكيني مع اموالهم والعيلاميين (واخذوا) العربات والبغال والحمير غنائم ووضعوهم في سفنهم وجلبوهم إلى باب — سالمتي بحضوري ودمروا تلك المدن وخربوها واضرموا فيها النيران ونشروا الرعب في بلاد عيلام كلها. وكان من جملة الغنائم .... (١)

---

(١) حول تفاصيل هذه الحملة والحملات الاخرى التي قام بها سنحاريب على بلاد علام انظر :
D.D. Luckenbill, The Annals of Sennacherib, Chicago, 1924, pp. 77 pff .

وهكذا تمكن سنحاريب من القضاء على قبيلة بيت – ياكيني الكلدانية وعلى حليفتها عيلام . وفي حملة اخرى يحدثنا عن استعادته عدداً من المدن الحدودية من عيلام وضمها إلى حدود الدولة الآشورية اضافة إلى اربع وثلاثين مدينة عيلامية اخرى في حين هرب الملك العيلامي كودور ناخوندو إلى المنطقة الجبلية البعيدة حيث قتل في خورة داخلية بعد بضعة اشهر .

وفي حملة اخرى يذكر سنحاريب كيف ان العيلاميين عادوا وساندوا ملك بلاد بابل ضد الحكم الآشوري فجهز عليهم حملة جديدة قضى على التمرد وعلى الحلفاء العيلاميين .

وفي اواخر عهد الدولة الاشورية ، في عهد الملك آشور بانيبال ، استغل العيلاميون الخلاف الموجود بين آشور بانيبال ملك بلاد آشور واخيه شمش – شم – اوكن ملك بلاد بابل فساهموا في اشعال نار الفتنة بين الاخوين وحرضوا شمش – شم – اوكن للثورة ضد اخيه والتمرد عليه وقدموا له العون العسكري فما كان من آشور بانيبال بعد ان قضى على التمرد في بلاد بابل إلاّ أن يتوجه إلى بلاد عيلام ويقضي على سلالتها الحاكمة قضاء مبرماً ويدخل العاصمة سوسا عام ٦٣٩ ق . م. فدمرها واحرق قصورها ومعابدها وقتل ملكها وقطع رأسه وحمله إلى بلاد آشور امعانا في الاذلال وبذلك كانت نهاية مماكة عيلام (١) .

وبعد مائة عام بالضبط من تاريخ نهاية مملكة عيلام ، وقعت كل من بلاد عيلام وبلاد بابل وبلاد آشور تحت حكم الفرس الاخمينيين ومن بعدهم تحت حكم السلوقيين فالفرثيين واخيراً الفرس الساسانيين إلى ان تم تحرير المنطقة على ايدي الجيوش العربية الاسلامية في معركة القادسية الاولى عام ٦٣٧ م .

---

(١) أنظر :

H. W. F. Saggs, The Greatness that was Babylon , London, 1962, pp. 131 - 134 .

التركيب السكاني والحضاري :

لم تتوصل الدراسات الحديثة بعد إلى تحديد اصل الاقوام التي استوطنت بلاد عيلام منذ الالف الثالث قبل الميلاد وموطنها الأول وقد قيلت بشأن ذلك آراء ونظريات عدة ربط بعضها العيلاميين بالاقوام الجبلية في الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية من بلاد بابل كقبائل اللولوبو والاقوام الكوتية والاقوام الكاشية معتمدين في ذلك على بعض التشابه اللغوي بين اللغة العيلامية القديمة وبعض المفردات اللغوية المعروفة من لغة الكاشيين ، ولاسيما اسماء الاعلام (١) ، غير ان الادلة المقدمة لاسناد هذا الرأي ضعيفة ولا يمكن الاعتماد عليها . ومن الباحثين من حاول ايجاد صلة بين اللغة العيلامية واللغات الدرافيدية التي انتشرت في القسم الجنوبي من الهند وبالتالي يرى أن اصول العيلاميين ترتبط باصول الاقوام التي تكلمت اللغات الدرافيدية (٢) فيما يرى فريق آخر ان اللغة العيلامية هي لغة متفردة (٣) تختلف تماما عن اللغات المعروفة حتى الان شأنها في ذلك شأن اللغة السومرية .

ومهما كانت الآراء والنظريات التي قيلت بشأن أصل العيلاميين وموطنهم الأول ، فمما لاشك فيه أن عنصراً قوياً ومؤثراً من الأقوام العراقية القديمة

---

(١) انظر :

CAH , part I , vol . I , p . 155

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) كانت اول معرفتنا باللغة العيلامية القديمة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي عندما بدأت محاولات العلماء دراسة وتحليل نصوص برسيبوليس ونقش بهستون، وهي نصوص ثلاثية الكتابة واللغة ضمت اللغة العيلامية القديمة والفارسية القديمة والبابلية ويرجع تاريخ تدوينها إلى القرن السادس قبل الميلاد. وكانت اللغة العيلامية تكتب بخط صوري شبيه بالخط السومري من حيث الفكرة وقد عرف بالكتابة العيلامية القديمة Proto-Elamite ويظن ان استخدام هذا الخط كان بتأثير من السومريين الذين سبقوهم في اختراع الكتابة . واعقب الكتابة العيلامية القديمة كتابة لا تتصل بسابقتها وتتألف من علامات مقطعية ورمزية (انظر : I. Gelb, Astudy of Writing, P. 121) وبعض العلامات الدالة وهي التي امكن حل رموز البعض منها من قبل العالم والترهينز وذلك عام ١٩٦١ ، وهي كتابة مشتقة من الكتابة المسمارية العراقية بعد تكييفها بما يتلاءم واللغة العيلامية (انظر طه باقر، المقدمة، ج ٢، صفحة ٣٨٣) .

دخل في تركيب سكان بلاد عيلام بدأ من مطالع الألف الثالث قبل الميلاد ، وازداد تأثير هذا العنصر تدريجاً وظهر أكثر وضوحاً في بعض الفترات التاريخية . فالارتباط الجغرافي الوثيق بين بلاد عيلام وبلاد بابل وعدم وجود أي حاجز طبيعي بين الأقليمين سمح لتنقل السكان بينهما في فترات السام والحرب ، فاشتبكت المصالح وتأثر كل أقليم بما لدى الأقليم الآخر من مظاهر حضارية ، وكان للعراقيين القدماء فضل السبق في ابتكار العديد من العناصر الحضارية التي رفدت الحضارة العيلامية ، ويشير إلى هذا التشابك والاختلاط بين الاقليمين ان كتاب جداول الملوك السومرية في مطالع الألف الثالث قبل الميلاد تحدثوا عن انتقال الملكية ، أي السلطة ، إلى المدن العيلامية حديثهم عن انتقالها إلى أي مدينة سومرية كما سبقت الإشارة إلى ذلك . وزادت التأثيرات الحضارية وزاد تأثير العنصر العراقي القديم في بلاد عيلام بقيام الدولة الأكدية ووقوع بلاد عيلام تحت الحكم الأكدي المباشر يشير إلى ذلك انتشار استخدام اللغة الأكدية بخطها المسماري في بلاد عيلام إلى درجة انها حلت في كثير من الأمور محل اللغة العيلامية القديمة . فلولا وجود عناصر مؤثرة بين سكان بلاد عيلام تعرف اللغة الأكدية وتقرأ الخط المسماري العراقي لما استخدمت اللغة الأكدية إلا في نطاق محدود جداً . إما أن تفسر هذه الظاهرة بأنها نتيجة لوقوع بلاد عيلام تحت الحكم الأكدي المباشر ، فإن الحالات المشابهة والمعاصرة لاتؤيد مثل هذا التفسير فقد سيطرت الأقوام الكوتية على بلاد أكد لما يقرب من مائة سنة ، وسيطرت الأقوام الكاشية على بلاد بابل لفترة جاوزت الأربعة قرون ، ومع ذلك لم تستخدم اللغة الكوتية أو الكاشية لا في المخاطبات والمكاتبات الرسمية ولا في غيرها بل أن السكان المحليين حافظوا على لغتهم وعلى كتابتهم وفرضوها على الفئة الأجنبية الحاكمة .

ومنذ بداية العهد البابلي القديم في العراق ، أي منذ مطالع الألف الثاني قبل الميلاد زاد التداخل والاختلاط يشير إلى ذلك أسماء الاعلام العيلامية ومنها أسماء بعض الملوك التي كانت تحمل صيغاً ومعاني أكدية وربما كان أصل

حامليها من الأقوام الأكدية . ومنذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، قدمت عيلام الملجأ للقبائل الكلدانية ، وهي من الأقوام العربية القديمة ، المناوئة للحكم الآشوري وكان في مقدمتها قبيلة بيت – ياكيني التي اشير اليها فيما سبق . وتذكر المصادر المسمارية إلى أن هذه القبيلة بالذات بقيت فترات ليست بالقصيرة في حدود مملكة عيلام أيام قوة الدولة الآشورية وسيطرتها الكاملة على المنطقة ومن الطبيعي أن ترسبت اعداد من الكلدانيين وآثرت البقاء في بلاد عيلام حتى بعد عودة بقية افراد القبيلة إلى بلاد بابل . وقد حمل كل ذلك كتاب التوراة في القرن السادس قبل الميلاد عند كتابتهم اسفار التوراة وهم في الاسر في بلاد بابل أن نسبوا العيلاميين إلى الأصل نفسه الذي ينتسب اليه الأكديون والبابليون والآشوريون وعدوا عيلام ، جد العيلاميين المفترض ، الابن البكر لسام بن نوح (١) .

ولم يقتصر تأثير بلاد وادي الرافدين على بلاد عيلام على التركيب السكاني ، بل كانت التأثيرات الحضارية العراقية القديمة أكثر وضوحاً وأسهل تتبعاً للباحث المعاصر ، وهو أمر طبيعي تمليه العلاقات السلمية والحربية بين الأقليمين ويحتمه الارتباط الجغرافي والسكاني الوثيق وتؤكده حقيقة ان بلاد سومر وأكد شهدت نشوء وازدهار حضارة أصيلة متطورة . فكان أن دخلت الحضارة العيلامية عناصر حضارية عراقية كثيرة كان في مقدمتها فكرة الكتابة المسمارية ومن ثم استخدامها لتدوين اللغة العيلامية واستخدام اللغة الأكدية بخطها المسماري العراقي . وفي مجال الفن ، اقتبس العيلاميون بعض الأساليب الفنية في صناعة الأختام الاسطوانية ونحت ونقش التماثيل والمسلات وبناء الزقورات في حين قدست بعض الالهة العراقية القديمة في بلاد عيلام واحتلت مكانة مرموقة ودخلت في تركيب أسماء الأشخاص. وامتدت التأثيرات الحضارية لتشمل الناحية الاقتصادية والنظم المتبعة لاسيما في مجال التجارة والتقويم .

(١) سفر التكوين، الاصحاح العاشر، فقرة ٢١.